جانبان مهمان من تاريخ ابن غنام

من خلال تأملي لتاريخ ابن غنام رحمه الله، لفت نظري فيه جانبان مهمان، يستحقان اهتمام الباحثين؛ ومن ثمَّ التوسع فيهما:

الجانب الأول: أن ابن غنام رحمه الله قد صاغ تاريخه بأسلوب يفيض حبًا وفرحًا بدعوة التوحيد، التي جددها الإمام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله، وناصرها أئمة الدولة السعودية الأولى؛ متمثلًا قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾، ويظهر هذا بجلاء عند:

١- حديثه المطوّل عن دخول بلاده الأحساء تحت حكم الدولة السعودية، واستبشاره بهذا الأمر، بدءًا من أحداث سنة (١٢٠٨هـ).

٢- حديثه عن حملة ثويني، واستنصار علماء الضلال من أهل الأحساء به؛ لإنقاذ بلادهم من دولة التوحيد، وإيراده لقصيدة أحد المناوئين «ابن فيروز»، ثم رده عليها بقصيدة مطولة[1]، مطلعها:

على وجهها الموسوم بالشؤم قد خُطا   عروس هوىً ممقوتة زارت الشطا

٣- إيراده لقصيدته الطويلة[2] المترعة بالفرح والنشوة، التي قالها «في قدوم سعود الحسا بعد قتل ثويني»، ومطلعها:

تلألأ نور الحق وانصدع الفجرُ   وديجور ليل الشرك مزقه الظُهرُ

وهذا يؤكد أن التوفيق إلى الحق، ولزوم صراط الله المستقيم، أمرٌ رباني،

---

(١) تجدها في أحداث سنة ١٢١١هـ.
(٢) تجدها في أحداث سنة ١٢١٢هـ.

يمن الله به على من يشاء من عباده، ولا يخضع لعاملَي الزمان والمكان. فكم من أناسٍ عاشوا بين ظهرانَي أنبياء الله، وفي ديارهم، ولكنهم أعرضوا، واستكبروا عن الحق، ونكصوا على أعقابهم من بعد ماتبين لهم الهدى. وكم من أناسٍ موقّنين، لم يحظَوا برؤية الأنبياء، ولكنهم آمنوا بما جاؤوا به من عند ربهم، كما أخبر الله عن هذا الأمر بقوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾، وقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾.

ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله، السلفية، ليست بدعًا من هذا، فقد عاداها بعض من هم أقرب إليها نسبًا ومكانًا وزمانًا، وشرقوا بها[1]، وتلقاها غيرهم بقَبول حسن، وهم نأوْا الزمان والنسَب عنها، وبينهم وبينها الجبال والوهاد مكانًا[2]، ومن هؤلاء: ابن غنام رحمه الله، الذي لم تأخذه حمية الجاهلية لقومه وبلاده على حساب الحق، وإنما دار معه كيفما دار، ولو على حساب وطنه وخلانه، وهكذا الإيمان إذا ما خالطت بشاشته القلوب، فإنه يجعل صاحبه يُجانب مَن قال الله تعالى عنهم: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾. فرحم الله الشيخ ابن غنام، ورفع درجته، وأعلى ذكره.

بقي أن يُقال هنا، ماقاله الدكتور عبدالله العثيمين: «ومع أنه - أي ابن غنام - كان متحمسًا للدعوة، فإنه لم يتردد في وصف نتائج المعارك؛ سواء كان النصر

---

(١) انظر نماذج لهم في رسالة: «المعارضة المحلية لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في نجد»؛ للدكتور محمد بن عبدالله النويصر.

(٢) انظر نماذج لهم في رسالة: «انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب خارج الجزيرة العربية»؛ للأستاذ محمد كمال جمعة.

فيها لمن هو متحمس لهم، أو لخصومهم»[١]. وهذا من إنصافه رحمه الله.

الجانب الثاني: مجموعة من صور العدل التي تحلت بها دعوة الإمام المجدد رحمه الله، وامتثلتها الدولة السعودية الأولى في تعاملها مع خصومها، وهي مما ينبغي إبرازه من الباحثين، لاسيما في ظل الدعايات المكثفة ضد هذه الدعوة المباركة، من قِبل أناس وجهات يصدق فيهم المثل العربي القائل: «رمتني بدائها وانسلت»، حيث عكسوا الأمور، وصوّروا البريء في صورة المتهم، والمتهم في صورة البريء؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

ثم مقارنة ذلك بما فعله خصوم الدعوة والدولة السعودية الأولى بها عندما تمكنوا، ليظهر التفاوت للمنصفين، وليحق لأهل هذه الدعوة أن يرددوا:

ملكنا فكان العدل منا سجية   فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وحللتمُ قتل الأسارى و طالما   غدونا على الأسرى نمنّ ونصفح
فحسبكمُ هذا التفاوت بيننا   فكل إناءٍ بالذي فيه ينضح

فمن تلك الصور - وأشير إليها مجرد إشارات -:

١- قول ابن غنام في أحداث سنة **١١٨٧**هـ «وأرسل عبد العزيز إلى أهلها - أي الدلم - الذين ناروا، وخرجوا مع دهام وساروا، يدعوهم إلى الرجوع، فلم يكن أحدٌ عنه بممنوع، **إلا من تميز بالشر والفساد**، وتوغل في طريق العناد، وتسربل بالبغي والإفساد، ففاؤوا إليها وآبوا، وقد ربحوا في ذلك وما خابوا، وسكنوا بها فطابوا». فالعقاب إنما هو للمسيئ، وصاحب الشر والفساد، دون غيره؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

---

(١) مراجعات في مصادر التاريخ السعودي (ص ١٩).

٢- قوله في أحداث سنة ١١٩٠هـ: «وفيها : قدم أهل منيّخ وأهل الزلفى على الشيخ وعبد العزيز؛ لأداء السلام، وتجديدًا لعهد الإسلام، ووفد معهم سليمان بن عبد الوهاب، ولم يكن له إلى منيّخ رجوع وانقلاب، بل حسُن له في الدرعية السكنى والمآب، فقوبلوا بالقبول والإكرام والبشاشة، وكان من الشيخ إلى أخيه سليمان أعظم تحنن واهتشاشة، فدثر حاله حينئذ وأراشه، ووسّع عليه قوته ومعاشه، **وكان هذا شأنه مع غيره**، طيب الله في ضريحه مهاده وفراشه». وهذا يبين أن هدف الشيخ محمد ومقصده أن يؤوب الناس إلى توحيد رب العالمين، وتحكيم شرعه، دون انحرافات، وأنه يفرح بأوبتهم للحق، ولايأخذهم بجرائرهم السابقة إذا ما انتهوا عنها وأنابوا، دون فرق بين قريب أو غريب.

٣- قوله في أحداث سنة ١١٩١هـ: «فلما جهد الحصار أهل البلاد - أي حرْمه -، وأضناهم القتال والجلاد، تحققوا أن سعودًا لا يكاد ينصرف عنهم بغير المقصود، وآيسوا من باطل الوساوس والآمال، وجزموا أنهم لا يحصلون على طائل ولا حال، طلبوا من سعود الدخول في الإسلام والإقبال، **وأبدَوا له الندم والأسف والإذلال، فأسقط عنهم النكال، وتلقاهم بالقبول**، وكان لهم إلى مرامهم وصول، واشترط عليهم أن ينفوا جميع الأشرار».

٤- قوله في أحداث سنة ١٢٠٧هـ متحدثًا عمّا عمله الإمام سعود في الأحساء، بعد فتحها: «وأمر بالتدريس في جميع الأربعة المذاهب، وتأييد كل سالك إليها وذاهب، وتعليم العلم ونشره وإحيائه بالمذاكرة فيه، وذكره والتجرد والتجريد في تفهم التوحيد، فقاموا فيه بعدما قعدوا، وشمروا في العلوم واجتهدوا، وأقر الأئمة في مساجدها وأكلَ حاصلها وفوائدها، وقرر العلماءَ في المدارس، فأصبح كلٌّ في كتب مذهبه دارس، فلم يكن منهجها مطموسًا ولا دارس، وأقر الأحباس والسبل، فلم يصل إلى أربابها خلل».

وقال رحمه الله في رده السابق على ابن فيروز:

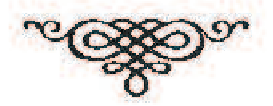
وقد ولي الأحسا سعودٌ فأسعدت مساعيه أهل الخير فانتظموا سمطا
وقرر أرباب الوظائف كلهم وما شاهدوا في كل أوقافهم هبطا
مدارسهم معمورة بعلومهم وما ثبطوا عن نشر أحكامهم ثبطًا
وما أبطلت أحكامهم حيثما أتى بإبطاله الشرع الشريف وما أخطا
ولم ينف إلا كل من عمل الردى ومن كان سبابا لمنطقه مسطا
فليس ترى إلا مفيدًا وهاديًا وعلما وتحديثًا بذا تسمع اللغطا
وأمر بمعروف وتنكير منكر وتنكيرًا من قد قارف الذنب والسخطا
وحثا على فعل الصلاة جماعة وتوبيخ من عنها تخلف أو أبطا
فلله رب الحمد والشكر دائمًا على نعم لم يحص نظمي لها ضبطًا

قلت: وفي هذا خير بيان عن موقف الدعوة السلفية، والدولة السعودية، من المذاهب الفقهية السنية، وأنها لاتعترض عليها، بل تؤازرها، وإنما اعتراضها على البدع والمنكرات، مع حثها المسلمين على اتباع الدليل الشرعي، وإن خالف المذهب الفقهي - كما هو معلوم -.

٥ - قوله في أحداث سنة ١٢١٢هـ: «وخاضت البحر بمحمد بن ديماس فرسه مسرعة، فدعي عند ذلك بالأمان، لكونه لم يعرفه من المسلمين إنسان، فأقبل بعد ذلك سريعًا، ونال ذلًّا شنيعًا، فقُيِّدَ وأُسِرَ بعدما مَلَكَ وقَهر، ثم بعد صدور القضية، أتى به مناع إمامَ المسلمين في الدرعية، فحاول على قتله حجة شرعية، وطريقًا يبري ذمته عند رب البرية، فكأنه، حرس الله تعالى من المكروه مهجته، وأدام توفيقه ونعمته وبهجته، تورّع في المسارعة إلى قتله، مع ما صدر من قبيح فعله، فقد كان وقافًا عند الحدود، وكان يدرؤها بالشُبه كما للنص بذلك ورود».

٦- أن ولاة أمر الدولة السعودية الأولى كانوا يُبقون حكام البلاد التي تدين لدين الله بالولاء، وترضى بالتزام الشرع، على حكمهم، دون أي مضايقة أو مصادرة؛ لأن هدف أولئك الكرام أن تخضع تلك البلاد لشريعة رب الأرباب، بغض النظر عن حاكمها مَن يكون؛ كما فعلوا في حريملاء وحرْمه وغيرها. بل وصلوا في تسامحهم وعدلهم إلى أن أبقوا مَن بذل غاية جهده في مناوأتهم على حكمه؛ كالشريف غالب بن مساعد، الذي أبقوه على حكم مكة، رغم جلاده الطويل، وعداوته الظاهرة لهم. وكذلك أبقوا الشيعي أحمد بن غانم على حكم بلاده القطيف، مادام قد رضي بالدخول تحت حكم الشريعة في الظاهر. وقد اعترف بهذا: المعارض الشيعي المعاصر حمزة الحسن، في كتابه «الشيعة في المملكة العربية السعودية»[(١)]، رغم حقده الواضح على الدولة السعودية، فقال: «وفي القطيف، التي تُعتبر إقليمًا منفصلًا عن الأحساء، بقيت الزعامة الشيعية السياسية التي كانت منحصرة في بيت آل غانم، حيث أبقى الأمير عبدالعزيز أحمد بن غانم حاكمًا للقطيف، وفي عهد سعود الكبير استمر أحمد بن غانم في الحكم، وفي عهد عبدالله بن سعود كان الحاكم القطيفي هو إبراهيم بن غانم».

فلعل الباحثين المهتمين يتوسعون في عرض الجانبَين السابقَين؛ لأهميتهما في إنصاف الدولة السعودية الأولى، ودفع ما لحقها من شبهات الخصوم، وافتراءاتهم.



(١) (١ / ١١٠).